كتلة سلامة إقليمية

ضد حرب المضروب على قفا أوامره بالانسحاب

لن تكون خسارة فادحة هذه الدماء الزكية التي أريقت، ولا الأرواح التي أزهقت، ولا الحريات التي صودرت، ولا العذابات والإهانات التي أوقعت، ولا الأموال التي نهبت، ولا معالم الحضارة وآثار المدنية التي دمرت، في جميع المدن والقرى الفلسطينية وفي جميع شرائح وتجمعات الشعب العربي الفلسطيني، إذا كان ما وقع سيشكل نقطة تحول في تاريخ الأمة والمنطقة العربية والإسلامية.

لن تكون خسارة فادحة، ليس بمعنى أنها هينة أو ضئيلة، فالواقع أنها صعبة وعزيزة حين يقدمها شعب صغير كالشعب الفلسطيني، ولكن بمعنى أن التحول في تاريخ أمتنا يستأهل كل عطاء مهما عظم وغلا.

فإذا لم يستلهم أحرار الأمة من المعركة الفلسطينية مشروع تحول عاجل ولم يعثروا بسرعة على أفضل الآليات لتنفيذه ولم يضعوا أقدامهم على بداية طريقه، راحت التضحيات هدرا، وسئل عنها كل راشد عربي أو مسلم يوم الدين.

لقد تجلى لكل ذي عينين أن الضعف خطيئة كبرى تجر على أهلها مصائب لم تكن في الحسبان. وأن التقصير العربي الذي امتد قرنا كاملا عجزت خلاله الأنظمة المختلفة عن تشكيل قوة سياسية أو عسكرية أو علمية أو اقتصادية، قد أدى بالأجانب الأقوياء إلى التعامل مع بلادنا بوصفها فراغا يحتاج إلى من يملؤه ومطية تستدعي من يركبها. ولم يكن في مقدور كياناتنا التي خرجت من ظلام القرون وأعشى نواظرها ضياء عصر الكهرباء أن تتصدى وهي على ذلك الحال للدفاع عن نفسها وعن ثرواتها، ولا أن تفرض على الآخرين الخوف منها والتراجع أمام زحفها الجمعي نحو مستقبلها، لأنها في تلك اللحظات الحاسمة رضيت بما أراده الغرب لها من تفرق وتجزئة وحكام خائرين.

في بدايات القرن العشرين نظرت إلينا السياسات البريطانية والفرنسية نظرتها إلى شيء من لحم البقرة العثمانية التي استل الأجانب سكاكينهم ليتقاسموا جسدها حال سقوطه المحتوم. وكانت تجارتهم مع الهند تغريهم بالموقع الإستراتيجي الذي تمثله قناة السويس وشرق المتوسط عموما. ثم ازداد ريقهم تحلبا وشهيتهم تفتحا حينما سال الذهب الأسود نفطا من العراق وشبه الجزيرة العربية وإيران. وسرعان ما جاءت الولايات المتحدة مسرعة إلى الوليمة بعدما أخرجتها الحرب العالمية الثانية من عزلتها. فلما شمت الدوائر الصهيونية رائحة القوة هرعت للتركيز على أمريكا ونخر دماغها وتسميم مراكز أعصابها، وأضفت على المخزون الغربي من كراهية الشرق ـ بعدما كان عندهم تذكارا من زمن الحروب الصليبية وميلا غامضا ضد المجهول ـ كهانة جديدة برزت في القرن الحادي والعشرين عاصفة حقد تنفخ تحت الرماد، وديانة جديدة لها في الولايات المتحدة كنائسها ومبشروها، لا بل ومحطاتها التلفزيونية والإذاعية وصحفها ونشراتها وكتبها التي لا تكرز باسم المسيح قدر ما تشتم اسم محمد! وجهدت الدوائر الصهيونية ذات الوجود المستديم والخطط المستديمة في تهميش أدوار الحكام الأمريكيين ـ بمن فيهم الرئيس ـ وجعلهم صنائع لها يأتمرون بأمرها وتتكالب النخب السياسية عندهم على خطب ودها.

<u>الكلب والعظمة :</u>

لكن علينا الآن أن نخالف مألوف عادة الناس فنتوقف عن النواح تارة وعن تشنجات العصاب وصراخه المتوتر تارة أخرى (وبين هذين تدور ـ للأسف ـ معظم مطارحاتنا الفكرية والسياسية والإعلامية). وعلينا أن نواجه الأمور بالعقل كما يجب. لأن نواحنا لن يحنن قلب عدو حاقد، وصراخنا بل حتى وأفعالنا العصابية لن توصلنا إلى الغاية التي نتمنى.

علينا أن نقول إن مهمتنا العاجلة هي أن نشكل في منطقتنا كتلة كبيرة مصمتة تجتمع لغرض أولي يسهل الاتفاق عليه، ألا وهو أن تصبح بفضل حجمها الكبير مستعصية على العض والنهش والبلع الذي تداعت الأمم إليه كما تداعى الأكلة على قصعتها. فالكلب لا يستطيع أن يأكل العظمة الضخمة مهما كان فمه كبيرا. وأمريكا لا تستطيع أن تضرب في وقت واحد جميع المستهدفين ـ والواقع أن الجميع مستهدفون ـ، كما لا

تستطيع أن تضرب واحدا إلا بمساعدة الآخرين. وترجمة هذا المطلوب سياسيا هي تشكيل موقف إقليمي رافض لقبول العدوان على أي طرف في الإقليم. وليكن اسمه ميثاق السلامة الإقليمية، بدلا من أن نطلق عليه اسما كبيرا مثل (الحلف) أو (الدفاع المشترك). وبمقتضى هذا الميثاق الذي هو نوع من الدفاع السلبي، أشبه بالعصيان المدني، تمتنع جميع دول المنطقة عن تأييد ضرب أية دولة منها وعن تقديم أيما دعم لوجستي أو غير لوجستي للدولة الأجنبية صاحبة المشروع العدواني. فإذا لم يكن من شأن هذا الميثاق أن يعرقل أو يعوق العدوان، فإنه يعفي دول المنطقة من التعرض للضغوط والإلحاحات من جانب بوش ابن بوش للانضمام إلى حلف لضرب العراق. وإنما نقتصر في (طموحاتنا وتمنياتنا) الخاصة بدول المنطقة على هذه الصيغة المتواضعة، دون أن يخطر ببالنا شيء أكبر أو أقوى من ذلك لأنه سبق للرسميات العربية (مثلا) منذ أربعينات القرن العشرين أن كتبت حبرا على ورق ميثاق دفاع عربي مشترك، ولم تلتزم به. فهل أقل من ميثاق سلامة إقليمية بعد ستة عقود من العدوان والنهب والسلب والمقت والاحتقار والإهانة؟!

أعتقد أن جميع الناس في بلادنا باتوا مدركين أنه لا أحد بمنجى من الاستهداف. فالعقل الصهيوني الأمريكي لا يريد أن يرى في المنطقة حقل قمح خصيب، ناهيك عن أن يرى مفاعلا ذريا لتوليد الطاقة أو لصنع القنبلة.

ولدينا في المنطقة اثنان من البلاد هما العراق وإيران اللذان دمغتهما بختم (حلف الشر)، لعزلهما تمهيدا لإعلان الحرب عليهما واحدا بعد الآخر تحت عنوان الحرب ضد الإرهاب. ولا يغيب عن بال دمشق الموضوعة على قائمة الدول الداعمة للإرهاب أن عدم إدراجها على هذه قائمة حلف الشر في اللحظة الحاضرة يرجع إلى اعتبارات تتعلق بترتيب الأولويات لا أكثر. وذلك ما لم يبخل الكونغرس عن تقديم الدليل الملموس عليه حين تحدث أعضاؤه الصهيونيون جدا عن ضرورة تشديد العقوبات على سوريا. وتعلم الرياض بدورها، وهي عنوان الاعتدال والعلاقة الوثيقة مع أمريكا، أن الأوساط الصهيونية هناك لا تنفك تتحدث قائلة إن سبعة عشر رجلا من أصل تسعة عشر ممن قاموا بعملية الحادي عشر من سبتمبر أيلول كانوا سعوديين، وأن مناهج تعليم التلاميذ في السعودية تنشئ إرهابيين! وكما تصطنع هذه الأوساط ذرائع شتى للتمويه على غرضها الحقيقي الذي هو حرمان دولة عربية كبرى ذات وزن متميز من عنصر القوة حتى لا يكون بوسعها أن تشطح أو تنطح، كذلك ينسحب الكلام على مصر التي تمثل بدورها وزنا متميزا وزعامة طبيعية في المنطقة، ومن هنا كانت مستهدفة بشدة. هذا ولا تستثني مخططات العدوان الأردن الشقيق على الرغم من صغر حجمه وقلة موارده، نظرا لطول حدوده مع فلسطين وطبيعة تركيبته السكانية. وهي لا تستثني لبنان الباسل بموقفه الشعبي والرسمي الطليعي. وما من بلد عربي ولا إسلامي إلا مرصود في غرف العمليات، موضوع في سجل الأهداف للعمليات الاحتياطية الجاهزة وعلى رأس هؤلاء جميعا باكستان التي جرى غزوها بالتدريج في سياق الحملة على أفغانستان.

أشياء يصعب تصورها :

نحن نسهب في هذه النقطة لأن معظم الرسميين في المنطقة لا يصدقون ولا يتصورون أن يصبحوا ذات صباح فإذا بهم محاصرون في مساكنهم، مقصوفون من البر والبحر والجو، وقد انتشرت المستعمرات اليهودية والأمريكية فوق جبالهم وموانئهم ووقفت الدبابات تتحكم في حركة السير على شوارعهم الرئيسية. ألم يقع ذلك هنا في فلسطين؟ ألسنا نحن الفلسطينيين على علم بأطماعهم منذ قرن من الزمان؟ ألم ندخل في صراع ساخن معهم منذ أكثر من نصف قرن؟ ألم نشهد النكبة الأولى عام ١٩٤٨؟ ومع ذلك فإن كثيرين منا لم يكونوا يصدقون أن يبلغ الأمر بآريئيل شارون أن يلاحق الفلسطينيين لينتزع منهم الضفة الغربية، وأن يقتل في جنين ومخيم جنين وفي نابلس ومخيمات نابلس دون حساب، وأن يزج بخيرة الشباب في زنازين التعذيب ومعسكرات الاعتقال الجماعي، وأن يقف جيشه ليقطع الطرق بين القرية والقرية، وأن يداهم البيوت بيتا بيتا، وأن يجرف الأشجار ويردم الآبار ويسرق محتويات البيوت!! ولم يخطر ببال أشدنا تشاؤما وسوداوية أن يأتي يوم يحتاج فيه المسافر من غزة إلى رفح إلى سبع ساعات يقضيها مضطرا أمام حاجز الدبابات والجنود العابثين الذين تنطق سحنهم بالنكاية والشماتة والتنكيل. إن المرء يتحدث عن الأخطار الوشيكة التي يدل عليها العقل، ولكنه يأمل في نفسه أن يحدث ما يخيب استنتاجاته التي أملاها المنطق.

وأعتقد أن ذلك شيء في طبيعة البشر، ولكن العرب يتصفون بقدر منه يبلغ حد المرض.

لطالما قلنا إن شارون مجنون وحاقد حتى خطر ببال البعض أن موته أو حلول غيره محله في حكم إسرائيل قد ينهي الإشكال. ولكن المسألة ليست كذلك. وعلينا أن نفهم هذا جيدا. فشارون واحد فقط من عتاولة الذين اعترضوا أصلا على أوسلو، وقالوا إن جميع المستعمرات الإسرائيلية يجب أن تبقى. وهؤلاء لهم دعواهم العقيدية، إذ يقولون إن اليهود لا يجوز أن يخلوا أرضا يهودية، وهم يرون أن الضفة كلها، وفلسطين بأكملها، ربما عدا قطاع غزة، وقعت يوما ضمن مملكة داود وسليمان وأن الوعد الإلهي يبيح لليهود حدود الفرات والنيل.. وشارون من الناحية الأخرى رجل عسكري، وقد سبق له أن ألقى منذ ثمانينيات القرن الماضي، أي منذ أكثر من عشرين سنة، محاضرات قال فيها إن من الخطأ أن تتقوقع نظرة جيش العدوان الإسرائيلي في حدود الدول المجاورة، بل عليها أن تقفز في حساباتها الاستراتيجية شرقا لتشمل إيران وباكستان. وشارون يحمل للعرب احتقارا كبيرا يرجع إلى التلقين العنصري لجيل مؤسسي دولة العدوان والاحتلال ويرجع لكون العرب الذين هم أمة كبيرة عاجزين عن أن يردوا العدوان الواقع عليهم. وشارون شخص كذوب كما شهد بن غوريون قديما، وهو انتهازي لا يتورع عن اهتبال الفرص السانحة. وهكذا رأى في الظروف التي تمر بها أمريكا في أعقاب أحداث سبتمبر فرصة نادرة لتسخير أمريكا وإمكانياتها الهائلة في ضرب أعدائه وتنفيذ مآربه التي طال انتظاره لها. وراح يحفز ماكينة الكذب الإسرائيلية في الولايات المتحدة والعالم لتضلل الأمريكيين بزعم أن أعداء إسرائيل هم أعداؤها ومعركة إسرائيل هي معركتها.

شركاء الأطماع :

شارون واحد من صف طويل من ساسة إسرائيل الذين آمنوا بأن العرب لا يستأهلون شيئا ما داموا على هذا الحال من الضعف. وقد ازداد أفراد هذا الصف ازديادا كبيرا وشمل أمثال بن إليعازر وبيريس الذين طالما صنفهم منظرونا في عداد اليساريين الذين يريدون التعايش وينادون به. ناهيك طبعا عن غير هؤلاء من الحاخامات ومريديهم والجنرالات وأتباعهم. ويشترك هؤلاء جميعا في عقيدة التوسع وأطماع الغزو.

لا يمكن أن يكون هناك رد على هؤلاء سوى حيازة القوة واستخدامها إذا لزم الأمر، أما أن يقول البعض إن شارون مجنون وقد فشل وإن إسرائيل لم تكسب شيئا من حربها الأخيرة فإن ذلك تبسيط خطير للأمور. وأخطر التحليلات هي تلك التي توحي بأن قانونا حديديا يحكم على إسرائيل من تلقاء ذاتها بالفشل والانهيار. وقد سبق لبعض الأنبياء الكذبة الذين يتكاثرون في أزمنة الأزمات أن بشرونا ذات أزمة بأن إسرائيل ستنتهي خلال شهور قليلة لأن نفقات إدامتها صارت أكبر من جدواها للأمريكيين. وإذا بنا نكتشف أن أمريكا هي المستعمرة الإسرائيلية وأن ما تحتاجه إسرائيل لأغراضها العدوانية والتوسعية تحصل عليه من قوت الشعب الأمريكي ومن عوائد نفط الآبار العربية، بينما أعضاء الكونغرس يهللون والرئيس الأمريكي المضروب على قفا أوامره لإسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية يحرص رغم الصفعة على أن يتحدث عن العلاقة (الفريدة)بين إسرائيل وأمريكا!

على أن جميع ما قام به شارون حتى الآن ليس إلا تمهيدا لمشروعه الكبير، مشروع استجلاب مليون يهودي من الخارج على حساب الولايات المتحدة. ومن يا ترى غيرها!؟ وفي مقابل ذلك، يتطلع شارون إلى ترحيل مليون فلسطيني من فلسطين إلى شرق الأردن. فالأردن كما صرح أكثر من مرة هو دولة الفلسطينيين. والتنازل عن الأردن في نظر شارون واحد من التنازلات المؤلمة التي يقول إنه مستعد لها من أجل سواد عيون السلام. فهو رجل سلام. وإذا لم تصدقوا اسألوا المضروب على قفا أوامره.!!